نخيل البصرة في ساعات الصباح

(شروع)
الوسادة/ كسل قطني...

كانتْ تنـزفُ ريشاً ؛ ألقيت برأسي على سُرّة الوسادة ، كانت دافئة ومُبتلّة ؛ رُبَّما سقتها أمي - قبل تحضير العشاء - بزخّةٍ من الدمع ، كانتْ أنفاسي الحرّى تُضفي على الحائط المليء بخرابيش أخوتي الصِغار طبقةً من الضباب...
الوسادة تُشبه لوحةً تجريديّة من الريش ؛ ضحكتُ ، تساءلتُ ، لو أننا نسمع صراخ الدجاج والديكة من ريشهم المُخبّأ في أكياس القماش لما تمكّنا من النوم أبداً...
دافئةٌ وسادتي ، وسادة الجميع "وجّهتُ وجهي" إلى الحائط و"سلّمتُ أمري" للوسادة غريباً مُعذَّباً ما أنا من الفرحين ، كان رأسي موشوماً بإزميل الأرق ؛ كانت عيناي توشكان على الخروج من محجريهما...
النوم كذبةٌ أحاول تصديقها...

كولاج مكاني: برحيٌّ المكان... بصريٌّ مقطوعٌ من نخلة

□ **كتابة وتصوير/ علي وجيه**

(بَصَرُ ، بَصيرة ، بصرة)
يُعاودُني منفاي ، رغم أنّ سنواته تيبّستْ وتجاوزتُها ، لكن : كم وطناً نحتاجُ لننسى المنافي المزروعة داخلَ جلودنا ، أكره كل أنواع السفر عدا سفر العودة، فالمنفى جعلني أتكوّر على ذاكرتي ، مكتبتي ، أحزاني ، كالحلزون ، يومٌ كامل بليلته قضيته في سيّارة للوصول لأن البصرة تستحقّ كلّ شيء ،كنتُ أنظر إلى الجبال ، ويخرجُ المتنبي من حُنجرتي :

بيني وبيـن أبي عليٍّ مِثْلُه
شُمُّ الجبال ومِثْلُهُنَّ رجاءُ
وعقابُ "إيرانٍ" وكيف بقطعها؟
وهو الشتاءُ وصيفهنَّ شتاءُ
لبس الثلوج بها عليّ مسالكي
فكأنها ببيـاضها سوداءُ

يَعودُ العائدُ ، "يتعرقنُ" الطَّريق ، النَّخلُ يرتدي عباءةً من لحاء ، والماء ينتابُني وأنا أرى سجّادة مياه زرقاء تحملُ اسم شطّ العرب ، حتّى الجِسرُ (جسر التنّومة) بدأ بالتراقص مع قلبِي ونحنُ في الطَّريق إلى البصرة القديمة (ومَنْ قال إنّ البصرة فيها جِديد؟!)...
أراهُ ، بالقامة الفارعة ، يفتحُ يديه وتقفُ حمامةٌ على يدهِ اليُمنى...

(العشّار ، أم البروم ، الكورنيش)
وصلتُ لبيت صديقي ، تحت الدوش مرّت الرحلة كومضة في بالي ، أشعر بتعب فضيع لكنني لن أنام : أيّ غبي ينام في البصرة؟!...
درجة الحرارة عبرت الخمسين درجة مئوية ، لدرجة أنّك تتعرق تحت الماء البارد أثناء الاستحمام ، أو أنّ دُخان السِّيجارة يشاكسُكَ فيبقى أمام وجهك ولا يتحرّك ، لكنّك تبتسم ، وتتذكّر أيّامك الثلجيّة "غريبَ الوجهِ واليدِ واللسان"...
تمشي نحو العشّار ؛ حيثُ البهجة ؛ والبائعُ المصريّ الذي يبيع العصير وهو يصيح "هو ده المكَرّش!" ، الضجيجُ يحرّك الهواء ، وتشعرُ بالبَياض وهو يلفّك كطفل...
أمّا أم البروم ؛ فحكايتُها حكاية ، سُمّيتْ بهذا الاسم تيمّنا باسم القدور التي أرسلها الوالي العثماني من تركيا للاحتفال بسلامته وسلامة عائلته من الطّاعون الذي فتك بالبصريين ونجا منه الوالي!...
تمشي وتشعرُ بالأرض تئنّ...
تسيرُ ويُخيّل لك أن أيديَ كثيرة تمتدّ لتسحبكَ ؛ الى أجداد فرمتهم الولاة ، وولاة ما زالوا يحتفلون بسلامتهم!...

(شلامجة)
وأنـتَ تشهقُ بالأخضر ، بهذه المدينة ، تمرّ على الكورنيش ، تحيي السيّاب وصديقك بائع السمبوسة ، وتعبرُ الجسر (الراقص!) نحو التنّومة ، لا تعرف بأنَّ هذا الأخضر الذي ازدحمتَ به طوال الأيام الماضية سيُمحى بعد نصف ساعة ، فأنتَ الآن في الشلامجة...
يمتدُّ الأصفرُ أمـام عينيك ، على مدّ درجات نظرك الـ(٦/٦) وأنتَ تجلسُ في سيّارة النقل متوجّهاً الى الحدود العراقية الإيرانية (معبر الشلامجة)...
تنظرُ لهذه المنطقة وتستعيدُ جزءاً من الذّاكرة ، ذاكرة الحرب ، وذاكرة الشباب المسكوب فوق رمال هذه الصحراء الشاسعة – الخالدة بعد فناء جيشين من الرجال...
ترى الأرض صلعاء ، مزروعٌ برأسها عشرات اللافتات المكتوب فيها (احذر ، حقل ألغام) ، فمَنْ قال إن القنابل والألغام تشيخ؟ ، إنها تحافظُ على بشرتها وتبقى مستعدّة لملامسة أيّ رجلٍ في أي لحظة كي يختلطا والغبار في طريقهم إلىً فوق ، أو تحت...
(وللألغام حكايةٌ أخرى رواها لي السائق ، لم تحاول أي منظمة دولية أو محلية إزالتها ، لكن تفجيرها يكون عبر الكلاب السائبة المسكينة التي يُشاهدُ أجزاء من جثثها وهي تتناثر في الشلامجة!).
يُخيَّلُ لك أنك ترى خوذةً ودبّابة وأسمال جنود..
تساءلُ نفسك : ما الذي أفعله ! ، أفكّر بزمن سبق ولادتي؟ لماذا؟ ، يجيئكَ الجواب من ذاكرةٍ قريبة ، حين تتذكّرُ الصّور التي ازدحمت ببيوت جيرانكم ، الشباب ذوو السوالف والشوارب الكثيفة والابتسامات الحقيقية (يومها كان الإنسان يبتسمُ بكلّ وجهه!) ، وشريطٌ أسود أمسكَ بياقة الصورة اليُسرى ، وتحتها : اسمُ الشَّاب و تأريخُ مخلوطٌ بسنيّ الثمانينيات...
ترجعُ وتحوّل بصرك ، تـرابُ أصفرُ لا يسرّ الناظرين يجعلك تظنّ حتى السماء صفراء فوق تلك المنطقة ، لا ماء ، لا شجرة ، لا بشر ، فقط بعض السيارات التي تقلّ الزوّار...
وتمشي السيّارة كامرأة حامل بالغرباء ، ويغصّ رجلٌ كهلٌ بقربك وهو يقول :
– هذا نهر جاسم!
وتتذكر ما لم تحضره ، الأمّ وهي تعانق ابنها قبل الالتحاق ، الابن وهو يقوم بوشم جسده للتعرف على جثته ، فالجثثُ تنتفخ بالماء ، ولا يمكن بأيّ حالٍ من الأحوال التعرف الى الملامح بعد أن تذوب...
يقول الشيخ ونحن ننظر لهذه "الحُفيرة" و "الجُسير" الصغير :
– لقد تمّ تحريم أكل السمك القادم من البصرة في الثمانينيات من قبل الحوزة ، نظراً لما التهمه من جثث شبابنا...
(سأحلمُ في ما بعد حلماً سورياليا بجدارة ، بسَمَك يرتدي الخوذات ، وشهداء يلبطون على حافةً نهرٍ جاف)...
يعودُ الشَّيخُ فيقول :
– عمت عيني عليك سجّاد!
ولا تحتاج لسؤاله عن سجّاد هذا ، من المؤكد أنه ابنه الذي صار وقوداً لحرب كسرتْ أضلع البلاد...
تصلُ إلى المعبر الحدودي ، ترى العلم العراقيّ الذي لُفَّ به مَنْ فكَّرتَ بهم قبل قليل وهو مُغبرٌّ ومثقّب ، تصلُ الى المعبر الإيراني لترى علمهم الذي "يلهث" لشدّة بياضه (وكأنهم يغسلونه كلّ دقيقتين!"...
تريح جسدك ، وأفكارك ، قبل العبور إلى إيران ، ترى امـرأةً عجوز عائدة من الزيـارة وعلى الأرض (الصوغات) من المسبحات وعلب حلوى الساهون ، يجذبُكَ حديثُها عن الأكل الإيرانيّ الرديء ، تشترك بالكلام وتقول لك بطيبة :
– "حبوبة" ، لا أعلم كيف يصبر العراقيون على أكلهم! ، حتى اللحم هناك يُشبه قطع البلاستيك! ، الحمد لله إن لحمنا لذيذ!
تسحبُ نَفَساً من سيجارتك وتجيبها وعيناك تنظرُ لصورة كهلين على الحائط :
– بالطبع لحمنا لذيذ يا "حبّوبة" ، ألا ترينَ العالم كلّه يأكلنا؟!...

(نظرةٌ عامة)
أن تذهب للبصرة ؛ فهذا يعني أنك تسقي ما تيبّس من عروق القلب وهي فرصةٌ أيضاً للعودة إلى طين الإنسان الأول ، حيثُ راؤهُ المفتوحة ، وما تبقّى من الطيبة ، و تجمع أكياس البياض ، و تدرس مقصورة تجتمعُ تحتها البصريّات عصراً على الكورنيش...
أشاهدُ الناس وأنا ألتهم قطعة (سمبوسة) بمعيّة شعراء مجانين ونحنُ نتشاتمُ بالفُصحى و الإيماءات ، ورُبّما – إن سمح الوقتُ – سأسيرُ في شارعِ بشّار ؛ لا لشيء ، بل فقط لاسترجاع لون الشّارع الخاكيّ حينَ كان الجّنودُ يعودون الى البصرة من أجل بقايا نساء و كأس عرق قبل تنـاول صحن المنيّة هنـاك ، ولشارع الجزائر حكايةٌ أخرى ، متبغددة، أو مُتخلجنة ، فأنتَ ؛ حينَ تركنُ روحَك قبل سيّارتك في أحد الكَراجات ، وتسيرِ على أطراف إحساسك ناظراً إلى مَنْ نزلنَ خطأً نحو البلاد ليمارسنَ الفقدان والفجيعة...
أسير قرب ساعة المعقل ، وسماع تنهّدات الماء بعد خطّ المنازل ، والانتباه إلى صوت منبّه الناقلة الكبيرة وهي تنامُ على جُرف الميناء...
إحصاء العصافير في بستان طالب عبد العزيز هوايةٌ كبرى ، الخصيبيّ الذي يتّسعُ صدره كلّما ضاقت القصيدة بوجوهنا ، رُبَّما سأحملُ مجرفتي ونحاولُ أن نحرث شيئاً من أرضه قبل الخُلود الى نغمات سعد اليابس ، وشلّة أخرى أرى ملامحهم في قصائده وهي "تُتمرُ" بصرةً قريبةً من الوريد وبعيدة عن العين...
أنـادي قدمـيّ : تسكّعي في البصرة ، فليلُها المدنيّ قصير وإنْ كان أطول من ضفيرة بصريّة ريفيّاً...
سأصغي إلى تنهّدات الأرض وهي تعطشُ وتدفعُ ثـأراً لا يخصّها ، وربّـما سأمرُ على البنايات الموشومة بقنابل الثمانينات وصواريخ التسعينات ورصاص الألفينات ! ، سأرى ملامح "فرسان" صالوا وتحوّلوا إلى طغاة يسومون بصرتي سوء العوز ، حين يشحّ الرغيف ، و ينفطر الحائط بعد حسرةٍ واحدة من أمّ "مُديْنيّة" تُحار بمَ تُطعمُ أبناءها...
تذهبُ إلى الزبير ، لأرى سنّة يحلفون بالعبّاس ، وسمراوات يكتظّ فيهنّ بلحُ الأرض...
وللأموات أيضاً حصةٌ ، فالحسنُ البصريّ لا يزالُ يحتضنُ موتانا ، وبجنبه رابعة وهي تغسل جسد البريكان المثقّب من دم تيبّس على جسده ، وعلى شفاه القصيدة ، ومن هناك سأزورُ مهدي عيسى الصقر لأخبره أنني وجدتُ – أخيراً – نسخةً من "الشّاهدة والزنجيّ" ، ورُبّما سأكتبُ عنها وإن كنتُ "خُمس" ناقد!...
سأمرّ على أمّهاتي جميعاً وهنّ يرينَ ابنهنّ البغداديّ بعد أن اختلطت الأصول ؛ وآبائي وهُم يجلسون بالمقاهي مدخّنين "أركيلة تتن" ، ومن نوعيّة لا نستطيعُ نحنُ – شاربي المارلبورو – تدخين شهقة واحدة منها...
سأجلسُ قربَ شيخ ، أيّ شيخ ، لأرى البصرة بين وقتين ، بين خمسينات كانت النساءُ فيها يرتدينَ "الأبيض القصير" وبين سواد لفّ حتّى الملامح ولم يكتف بتكبيل جدائل لو شاءَ اللهُ لها حريّةً لأسكرتْ كلّ مَنْ رآها...

للأموات حصةٌ، فالحسنُ البصريّ لا يزالُ يحتضنُ موتانا، وبجنبه رابعة وهي تغسلُ جسد البريكان المثقّب من دم تيبّس على جسده ، وعلى شفاه القصيدة

طفل من جيكور

بيت السياب

(جيكور)
هُناك : يكون البيت الجيكوري مُشرفاً على النهر الصغير ، أما باطن النهر فهو أشبه بحساء الشِعريّة (الشعرية؟!) ، بطحالبه وسعفه المُقطَّع وعشبه ، أعتقدُ أنّ كل من رأى جيكور تمنّى السكن فيها ، هُنا حيث تشعر بطفولة الإنسان : بعيداً عن تحضّر المدن البليدة ، رُبّما يُفاجئك مشهد منظومة أنترنت فوق البيت الطيني أو فلاّح يحمل الموبايل ويتكلم بصوته العالي لكن هذا لا يُضعف أمنيتك ، استدارةٌ واحدة وإذا به يشخصُ أمامنا : بيت الشاعر السيّاب ، منزل الأقنان ، شبّاك وفيقة ، بويب كلّ هذا في منطقة لا يتعدّى محيطها كيلومتر واحد فقط !...
التفتُّ إلى صديقي (الذي تقاعد مؤخراً) :
– أهذا بيت السيّاب؟
– نعم
نزلتُ ، كان البيت بلا باب وربّما كان بابه مفتوحاً ، لا أذكر لكنني أتذكّر تقبيلي للباب كتقبيل أبواب الأولياء الصالحين ، إن لم يكن السيّاب وليّاً شعريّاً صالحاً فماذا يكون؟...
دخلتُ إلى منزل الأقنان ، كان البيت خارج نطاق النظافة ،سألتُ نفسي:ماذا لو كان هذا منزل أحمد شوقي؟.
ويحضرني صوت الجواهري وهو يقول :
والله لو كنتُ مكان شوقي لسال الشعرُ من تحتي وفوقي !
كنتُ حاملاً الكاميرا عسى أن التقط صورة مع السيّاب فـ(الشعراء لا يموتون : بل يدَّعون الموت : جان كوكتو).
على باب منزل الأقنان كُتب "ص١١٤" ولا أعلم ما معناها ، دخلتُ : كان البيتُ مُصفرّاً والأبوابُ قد تقشّر صُبغها لتظهر عظام الباب الخشبيّة...
الأبواب مصبوغةٌ بصبغ رخيص مُتقشّر ؛ الشبابيكُ بلا زجاج ؛ والتراب هويّةً البيت...
كانت الغرف متشابهة ، يستحيل معرفة أي غرفة كانت لبدر ، الأرضُ تكتسي بطبقة من الملح ، عُلب كولا ، بقايا مجرفة ، ماكنة حلاّقة ، عصّارة كاكاو ، شريط فياغرا فارغ (ماذا فعلتَ أيّها السيّاب؟؟).
لم أرَ السيّاب في غُرفته ، لم أرَ مكتبته ، لم أرَ سريره ، لم أرَ شيئاً سوى عود حديدي! مغروزٍ في الحائط ؛ لا أثر لأي شيء يدلُّ على بدر...
ولا شيءَ يدلّ عليَّ ؛ لستُ إلاّ بصريّاً مقطوعاً من نخلة...

×××

هامش غير مهم أبداً...
× في ديوان السيّاب طبعة دار العودة : ص ١١٤ كانت الصفحة فارغة! وفي طبعة دار المرتضى اللبنانية كانت قصيدة غريب على الخليج!

لم أرَ السيّاب في غُرفته ، لم أرَ مكتبته ، لم أرَ سريره ، لم أرَ شيئاً سوى عود حديدي! مغروز في الحائط ؛ لا أثر لأي شيء يدلُّ على بدر...
ولا شيءَ يدلّ عليَّ ؛ لستُ إلاّ بصريّاً مقطوعاً من نخلة...

نهر بويب